المحاضرة الحادي عشر: تحقيق المخطوطات

أولا: مدخل عام إلى المخطوطات

المخطوطات تُعد من أهم المصادر التاريخية الأساسية، فهي النصوص المكتوبة بخط اليد قبل انتشار الطباعة، وتشمل الوثائق الدينية، التاريخية، العلمية، والأدبية. وتمثل المخطوطات وسيلة مباشرة للتعرف على الفكر والثقافة والتاريخ في فترات زمنية محددة، إذ تعكس مستوى اللغة، الأسلوب، والمحتوى المعرفي في عصرها.

وتتميز المخطوطات عن المصادر الحديثة بأنها فريدة من نوعها، متعددة النسخ، ومكتوبة بأدوات وتقنيات مختلفة مثل الحبر والورق أو الرقاع، ما يجعلها عرضة للتحريف أو الفقد الجزئي عبر الزمن. لذلك، يكتسب التحقيق العلمي للمخطوطات أهمية بالغة لضمان أصالة النصوص، تصحيح الأخطاء، وربطها بسياقها التاريخي الحقيقي.

ثانيا: أنواع المخطوطات وأشكالها المادية

تتنوع المخطوطات العربية والإسلامية حسب المحتوى والغرض، وكذلك حسب شكلها المادي، مما يجعل تصنيفها خطوة أساسية في التحقيق التاريخي.

من حيث المحتوى، تشمل المخطوطات: المخطوطات الدينية، مثل القرآن الكريم وكتب الحديث والفقه، والتي تعد من أقدم وأهم المخطوطات في التراث العربي الإسلامي. كما توجد المخطوطات التاريخية، التي توفر معلومات مباشرة عن الأحداث والشخصيات والفترات الزمنية، وتعد مصدرًا رئيسيًا للمؤرخين. بالإضافة إلى ذلك، توجد المخطوطات الأدبية والعلمية، والتي تضم الشعر، النثر، وعلوم اللغة والطب والفلك والكيمياء، موفرة بذلك صورة واضحة عن مستوى المعرفة الفكرية والعلمية في عصرها.

أما من حيث الشكل المادي، فتنقسم المخطوطات إلى مخطوطات ورقية، مكتوبة على الورق المصنوع يدويًا، وكانت الأكثر شيوعًا منذ القرن الرابع الهجري. وهناك الرقاع، وهي قطع من الجلد أو الرق، استخدمت قبل انتشار الورق وتتميز بالمتانة وطول العمر الافتراضي. كما توجد المخطوطات المملوكية والعثمانية، التي تتميز بخطوطها وزخارفها الدقيقة، وتعكس الأساليب الفنية والفكرية في العصور المختلفة.

ويعد تصنيف المخطوطات حسب المحتوى والشكل المادي خطوة أساسية تساعد الباحث على تحديد تقنيات النسخ، التعرف على النسخ الأصلية، وتقدير مدى تأثر النص بالتحريف أو الإضافة عبر الزمن.

كما يسهل هذا التصنيف توظيف المخطوطات ضمن الدراسات التاريخية والأدبية والفكرية بطريقة علمية منظمة، ما يعزز من قيمتها كمصدر أكاديمي موثوق.

ثالثا: تحقيق المخطوطات

يُعد تحقيق المخطوطات أحد أهمّ فروع البحث العلمي في مجال التراث العربي الإسلامي، فهو الجسر الذي يصل بين النصّ التراثي القديم والقارئ المعاصر، بأقرب صورة ممكنة من النصّ الذي أراده مؤلفه. ويجمع هذا العلم بين المعرفة اللغوية والتاريخية والمنهجية، ويستلزم خبرة بالنصوص وخصائصها ونُسخها وخطوطها.

وقد نشأ علم التحقيق الحديث في البيئة العربية في القرن التاسع عشر، مع رواد النهضة، قبل أن يتطور في القرن العشرين ليصبح علمًا ذا قواعد راسخة متأثرًا بالمناهج النقدية الأوروبية، خصوصًا المدرسة الألمانية (منهج لاخمان) والمدرسة الفرنسية الحديثة في النقد النصي.

1- مفهوم تحقيق المخطوطات

يقصد بـ **تحقيق المخطوط:** إخراج النص من مصادره الخطية المختلفة في صورة صحيحة أقرب ما تكون إلى ما كتبه المؤلف، مع توثيق فروق النسخ وشرح الغريب وتنظيم النص ووضع الفهارس اللازمة له. وهذا يشمل عمليات علمية دقيقة مثل المقابلة، التدقيق، تحليل الأخطاء، وترجيح الروايات.

2- تعاريف علمية:

- ✓ يراه **عبد السلام هارون** بأنه :إثبات النص صحيحًا مضبوطًا، كما أراده مؤلفه، مع التعليق والشرح عند الحاجة
- ✓ ويعرّفه **طه حسين** بأنه :إعادة بناء النص كما كان في أول ظهوره، بعد تطهيره من زيادات النساخ وتحريفاتهم
- ✓ وتذكر **نجاة المريني** أن التحقيق :عمل علمي نقدي يعتمد على منهج، يهدف إلى تقديم نص تراثي موثوق، مضبوط ومعلل

رابعا: أهمية تحقيق المخطوطات

تبرز أهمية التحقيق في النقاط الآتية:

1- **إحياء التراث:** فالمخطوطات تمثل أساس الذاكرة الحضارية العربية الإسلامية.

2- **توفير نصوص علمية محقّقة** لطلبة العلم والباحثين، بدل الاعتماد على نسخ غير موثوقة.

3- **تنقية التراث من التحريف** الذي تراكم عبر قرون النسخ اليدوي.

4- **تمكين الباحث من دراسة تاريخ العلوم** عبر نصوصها الأصلية.

5- **رفد المكتبات العربية بنصوص نقدية** تساعد على الدراسات الأكاديمية في الفقه، والأدب، واللغة، والفلسفة، والطب، والتاريخ.

خامسا: شروط المحقق العلمي

يشترط في المحقّق امتلاك مجموعة من الأدوات:

1- إلمام ممتاز باللغة العربية وعلومها.

2- معرفة بتاريخ العلوم المتعلقة بالنص المراد تحقيقه.

3- القدرة على قراءة الخطوط القديمة.

4- الإلمام بعلوم الببليوغرافيا وفهارس المخطوطات.

5- امتلاك خبرة بالنقد النصّي والمقارنة بين النسخ.

6- الالتزام بالأمانة العلمية.

يشير **عبد الهادي الفضلي** إلى أنّ المحقق ينبغي أن يتسلح بـ ثقافة لغوية وفكرية واسعة، وصبر طويل على البحث والمقابلة.

سادسا: مراحل ومنهجية التحقيق

1. **جمع النسخ الخطية**

وهو أول وأهمّ مرحلة، إذ لا يمكن إقامة نص علمي دون جمع ما أمكن من نسخ المخطوط. ويتم ذلك عبر: زيارة المكتبات (الوطنية، الجامعية، الخاصة). والاستعانة بفهارس المخطوطات العربية (مثل فهارس دار الكتب). زالبحث في المستودعات الرقمية. **و** كلما كثرت النسخ، كانت النتيجة أدق، بشرط حسن التمييز بينها.

2. **دراسة النسخ وتحديد قيمتها**

تُفحص النسخ وفق معايير: تاريخ النسخ. وخط الناسخ وسمعته. وسلامة النسخة من السقط والتحريف. وجود سماعات أي إثبات كتابي يُدون في المخطوط يدل على أن نص الكتاب قُرِئ أو سُمِع كاملا أو جزئيا على شيخ أو مؤلف، بحضور شخص أو جماعة، في زمان ومكان معيّنين. أو تملّكات أو إجازات. واعتماد العلماء عليها.

وهنا يقوم المحقق بتحديد **النسخة الأم (الأصلية)** أو النسخة الأساس التي سيبني عليها عمله.

3. **المقابلة بين النسخ (Collation)**

وتُعد هذه المرحلة قلب التحقيق، إذ تتم مقارنة كل النسخ كلمة كلمة، واستخراج الفروق، وتحليلها، واختيار الراجح منها.

وضع **كارل لاخمان** أسس المقابلة الحديثة عبر منهج "شجرة النسخ" Stemma codicum ، الذي يهدف إلى تحديد العلاقات الجينية بين النسخ، ومعرفة الأخطاء المشتركة التي تشير إلى أصل واحد.

4. تصحيح النص وترجيح الروايات

يتطلب المحقق أن: يرجّح بين القراءات. ويختار الأنسب لأسلوب المؤلف. ويعتمد القواعد اللغوية والبلاغية. ويستعين بالنصوص الأخرى للمؤلف إن وُجدت.

5. التعليق على النص

ويشمل: شرح الغريب. وتوضيح المعاني. وتخريج الآيات والأحاديث والشواهد الشعرية. والتعريف بالأعلام والأماكن. وشرح المصطلحات التخصصية.

6. ضبط النص وتنسيقه

يحرص المحقق على: ضبط الكلمات ضبطًا صحيحًا. وتقسيم النص إلى أبواب وفصول (إن لم يكن المؤلف قد فعل). وتوحيد علامات الترقيم. وإخراج النص بصورة علمية سليمة.

7. إعداد الفهارس العلمية ومنها: فهرس الآيات. _فهرس الأحاديث. _فهرس الأعلام. _فهرس الأماكن. _فهرس المصطلحات. _فهرس الأشعار. _فهرس المصادر والمراجع.

8. كتابة مقدمة التحقيق وتتضمن عادة: ترجمة المؤلف. وصف مخطوطه ومنهجه فيه. وتاريخ النسخ وأوصافها. ومنهج المحقق في إخراج النص. وأبرز المشكلات التي اعترضته.

سابعا: أهم مشكلات تحقيق المخطوطات

1- رداءة الخط أو تآكل الورق.

2- سقط في النسخ (سقط أول، وسط، آخر)

3- تداخل الأسطر أو التصحيف والتحريف.

4- اختلاف ترتيب الأبواب.

5- زيادة الناسخ وتدخله في النص.

6- تعدد النسخ دون وجود نسخة مرجعية واضحة.

7- تشابه الكلمات في الخط العربي القديم (مثل: خُلِق / حُلِق / خَلَق).

8- غياب التوثيق التاريخي للنسخة أو مؤلفها.

ثامنا: ضوابط التحقيق العلمي

1- الأمانة العلمية وعدم تغيير النص إلا بقرينة قوية.

2- إثبات ما في النسخ قدر الإمكان.

3- تمييز تصرفات المحقق عن نص المؤلف.

4- تجنّب التطويل غير الضروري في الشروح.

5- الالتزام بقواعد التحقيق العالمية (كما في أعمال بيدويل، ماس، لاخمان، وهارون)

6- عدم اعتماد نسخة مطبوعة إلا كمرجع ثانوي.

7- الإشارة إلى القراءات غير الراجحة في الهامش.

تاسعا: إشكالية المخطوطات كمصدر تاريخي

رغم أهميتها الكبيرة، تواجه المخطوطات عدة إشكاليات نقدية تجعل من التحقيق التاريخي خطوة أساسية قبل اعتمادها كمصدر موثوق.

أولًا، التحريفات النصية والنسخ المختلفة تشكل تحديًا كبيرًا. فقد تنتقل المخطوطات عبر نسخ متعددة قام بها كتاب مختلفون، ما قد يؤدي إلى إضافة أو حذف أو تغيير بعض النصوص عن الأصل. هذه الفروق بين النسخ تجعل من الضروري مقارنة النصوص المتعددة لاستخلاص النسخة الأقرب للأصل.

ثانيًا، هناك صعوبة التأريخ الدقيق للمخطوطات، إذ كثيرًا ما تكون تواريخ النسخ غير موثقة أو غير واضحة، مما يحد من القدرة على تحديد سياقها التاريخي بدقة. ويضاف إلى ذلك فقدان أجزاء من النصوص أو تلفها بسبب عوامل الزمن والبيئة، ما يضع الباحث أمام مهمة إعادة بناء النصوص وتحليلها ضمن سياقها الأصلي.

ثالثًا، تحمل المخطوطات أحيانًا أخطاء لغوية أو فكرية بسبب عدم دقة الناسخين أو اختلاف القراءات، ما يفرض على المحقق تصحيح الأخطاء ومراجعة النسخ بعناية قبل استخدامها في الدراسات التاريخية.

رغم هذه الإشكاليات، تبقى المخطوطات مصدرًا أساسيًا للمعرفة التاريخية والثقافية، إذا ما خضعت للمعالجة النقدية الدقيقة التي تضمن أصالة النصوص، استعادة المعنى الأصلي، وفهم السياق التاريخي.

علم الكوديكولوجيا

أولًا: تعريف علم الكوديكولوجيا

علم الكوديكولوجيا (Codicologie) هو علمٌ مساعد من علوم التاريخ وتحقيق التراث، يهتمّ بدراسة المخطوط بوصفه مادةً (مادية) لا من حيث مضمونه فقط، بل من حيث شكله وبنيته الفيزيائية وظروف إنتاجه.

و هي: علم يدرس المخطوط من حيث مادته، وصناعته، وبنيته، وتكوينه، وتاريخه، بهدف فهم ظروف إنتاجه وانتقاله واستعماله. ويُسمّى أحيانًا: أركيولوجيا الكتاب المخطوط.

إن أول شيء يمكن قوله في هذا الباب وأُحب أن أُبينه: إن المخطوط هو ابن بيئته وعصره؛ وتأويل ذلك أن كثيراً ما تكون المواد المصنوعة منه كالورق والمِداد والجلد آتية من المكان الذي صنع منه الكتاب، إضافة إلى كون الناسخ الذي قام على كتابته، والمزخرِف الذي أنّقه، والمجلِّد الذي اعتنى بتجليده وتذهيبه، قاموا بفعل ذلك حسب القواعد والأعراف والتقاليد الجارية في عصرهم، لذلك فإن ظهور سِمات العصر الذي تمفيه صنْع المخطوط أمر بدهي، ولا يبقى على الباحث إلا تلمس ذلك لتقديم تحديد تقريبي لعمر ومكان نسخه

إياد خالد الطباع